اللغة العربية بأسيوط
المجـــلة العلميـــة

سمت البلاغة بين مدرستى التحليل والتقعيد

إعداد

د. محمد سيد سلطان

المدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية

(العدد التاسع والعشرون – الجزء الثانى أكتوبر ٢٠١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ، وعلى آله وصحبه ومن نهـج نهجه.

ثم أما بعـــد،،

فإن الناظر فى مسيرة البحث البلاغى يجده قد انقسم إلى مدارس متعددة تبعاً لاختلاف مشرب وتذوق أربابها.

ومما هو بين الاختلاف بين مدرستى التذوق البلاغى التى تتمثل فى مدرسة الشيخ عبـد القاهر الجرجانى ومن سار على دربه كالزمخشرى وغيره وبين مدرسة التقعيد البلاغـى والـتى تتمثل فى السكاكى ومن لف لفه كالخطيب وغيره.

ومما لا تخطئه العين فى التباين بين المدرستين اعتماد المدرسة الأولى على تحليل الشـاهد وتذوقه ، ومن ثم استنباط القاعدة على أساس التحليل والتذوق ، ولذا جاءت أحكامها دقيقـة سديدة ، وهذا يغاير السمت العام لمدرسة التقعيد البلاغى حيث عنيت بوضع القاعـدة ابتـداءً وتطلب الشاهد من بعدها ، ومن ثم اعتراها القصور فى كثير من المواضع.

ومما هو مهم فى الدرس البلاغى أن نبنى على مراجعة البلاغى وفق مقاييس المدرسة الأولى.

ولذا جاءت هذه الدراسة الموجزة للفت النظر إلى الخصائص والسمات العامة من خلال بعـض القواعد البلاغية التى جاءت عند كل منها ، وهذه دراسة تتبعها دراسات أخـرى لاستقصـاء السمات والخصائص من الوجوه كلها .

والله المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتور / محـمد سـيد سـلطان

المدرس فى قسم البلاغة والنقد

مدرسة الشيخ عبد القاهر الجرجانى ومؤلفاته

١- الإمام عبد القاهر الجرجانى:

هو الإمام المشهور أبو بكر تحمد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى . اتفق المؤرخون على الثناء عليه بالعلم والدين ولقبوه بالإمام ، واشتهر بالنحوى من قبل أن يضع علم البلاغة على أنه كان متكلماً وفقيهاً أيضاً ، أخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين محمد بن الحسين الفارسى ابن أخت الشيخ أبي على الفارسى واقتصر على الأخذ عنه ؛ لأنه لم يلق شيخاً مشهوراً فى علم العربية غيره، وكان الشيخ عبد القاهر عالماً بالنحو والبلاغة وإماماً من أئمة العربية والبيان . شافعى المذهب متكلماً على طريقة الأشاعرة ، وله فى النحو كتاب المغنى فى شرح الإيضاح لأبى على الفارسى ، ويبلغ ثلاثين مجلداً ، واختصره بشرح سماه "المقتصد " فى ثلاثة مجلدات ، و " العوامل " و " الجمل " وهو شرح لكتاب العوامل ، ثم لخصه فى كتاب أسماه " التلخيص " و " العمدة " فى التصريف و " المفتاح " وهو فى التصريف أيضاً (١).

٢- الإمام عبد القاهر وازدهار البحث البلاغى:

يعتبر الإمام عبدالقاهر واضع أسس البلاغة والمشيد لأركانها وفاتح مغلق أبوابها ، وكاشف خبيئها وموضع مشكلاتها وعلى نهجه سار المؤلفون ونهلوا من معينه واغترفوا من بحره وأتموا البنيان الذى وضع أسسه(٢). ومن ثم قال صاحب الطراز الإمام يحيى بن حمزة العلوى المتوفى ٧٤٩هـ " إن عبد القاهر أول من أسس قواعد هذا العلم وأوضح براهينه ، ورتب أفانينه ، وفتح أزهاره من أكمامها، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها بكتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء"(٣).

وفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة مات إمام النحاة والبلغاء عبد القاهر الجرجانى رحمه الله رحمة واسعة ، وأجزل له مثوبته جزاء ما قدم للإسلام واللغة العربية.

---

(١) ينظر: بغية الوعاة للسيوطى ١٠٦/٢، طبقات الشافعية للسبكى ٢٦٢/٣.

(٢) تاريخ علوم البلاغة للمراغى ١٠٠.

(٣) الطراز للعلوى ١/ ٤.

٣- بلاغة الإمام والدلائل والأسرار:

صحيح أن مباحث علم البيان وكثيراً من مباحث علم المعانى كانت معروفة قبل الإمام – رحمه الله تعالى – ومع ذلك فإن هذه المباحث لم تتبلور فى نظرية بلاغية متكاملة إلا على يده ولم تدرس من قبله بالعمق والإحاطة والنضج التى درس الإمام بها هذه القضايا.

ولقد كان فضل الشيخ على علم المعانى أضعاف فضله على علم البيان ، ذلك بأن معظم فنون البيان كانت مدروسة قبله بصورة أو بأخرى ، واقتصر دور الإمام عبد القاهر على جمع شتات ما تبعثر من مباحث هذا العلم وتصنيفه وتبويبه واستكمال ما فات سابقيه، وتناول ذلك كله من خلال منهج علمى جديد فى عبارة رائعة وأسلوب أدبى لا نظير له بين مؤلفى البلاغة العربية فتبلورت على يديه لأول مرة نظرية البيان متكاملة .

أما علم المعانى فقد كانت معظم مباحثه مجهولة قبل الإمام عبد القاهر ، وما عرف منها كان مبعثراً فى ثنايا الكتب ، فجاء الإمام وأنشأ معظم مباحث المعانى وحتى ما كان معروفاً من هذه المباحث تناوله تناولاً جديداً وكأنما يبدعه لأول مرة(٤).

ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الإمام عبد القاهر – رحمه الله – استطاع أن يضع نظريتى علم المعانى والبيان وضعاً دقيقاً.

أما النظرية الأولى فخص بعرضها وتفصيلها كتابه " دلائل الإعجاز " وأما النظرية الثانية فخص بها وبمباحثها كتابه " أسرار البلاغة " وينبغى أن نلاحظ من أول الأمر أن قسمة البلاغة إلى علوم ثلاثة هى المعانى والبيان والبديع لم تكن قد استقرت حتى عصر عبد القاهر ، ومن يرجع إلى مطالع كلامه فى " دلائل الإعجاز " يجده يسمى مباحثه فيه مباحث بيانية ؛ إذ يقول: " إنك

(٤) ينظر: البلاغة العربية وتاريخها ، مصادرها ، مناهجها . د/ على عشرى زايد ص١١٤، ١١٥، نشر مكتبة الشباب سنة١٩٨٢م.

لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً وأبسق فرعاً وأحلى جنى ، وأعذب ورداً وأكرم نتاجاً وأنور سراجاً من علم البيان"(٥).

كما أن الناظر فى كتاب الدلائل يجد الإمام قد عرض فيه للمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه ، ولكنه إنما جاء بها فى ثنايا تفسيره لنظرية النظم التى أدار عليها الكتاب واستخرج فيها شعب علم المعانى.

وتقترن بكلمة البيان فى الكتاب كلمتا الفصاحة والبلاغة وكأنها جميعاً ذات دلالة واحدة حيث يقول: " فى تحقيق القول على "البلاغة" و "الفصاحة" و "البيان" و "البراعة" وكل ما شاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما فى نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائرهم"(٦).

وهكذا ترى فى كتابة الثانى " أسرار البلاغة " الذى هو خالص لمباحث البيان ولونين من البديع اللفظى هما الجناس والسجع ، تراه يقول فى فواتحه:

" وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب ، أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب "(٧). وكأنه يعد الاستعارة من مباحث البديع مقتدياً فى ذلك بابن المعتز ، وواضح من ذلك أن الإمام عبد القاهر كان يرى أن علوم البلاغة علم واحد تتشعب مباحثه.

تفسير الإمام لمدلولى الفصاحة والبلاغة:

إن الناظر فى كتب البلاغة والأدب التى كتبت قبل الإمام – رحمه الله تعالى– يجد هذين اللفظين " الفصاحة ، والبلاغة " ولكنه فى الوقت نفسه يتحير إذا ما أراد أن يقف على المعنى الدقيق لمفهومهما ، نعم قد يجد تفسيراً أو تفسيرات لكنها لا تعدو أن تكون مجرد اجتهاد عابر ،

(٥) دلائل الإعجاز ط: مطبعة المدنى ت أ. محمود شاكر ص٥.

(٦) الدلائل ص٤٣.

(٧) أسرار البلاغة ص٢٠ ت أ/ محمود شاكر . نشر دار المدنى بجدة ط: أولى سنة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

أو سرد لمواقف تاريخية قد تعجب القارئ أو لا تعجبه ، والدليل على ذلك مأخوذ مما كتبه الجاحظ فى كتابه " البيان والتبين " وما كتبه أيضاً أبو هلال العسكرى فى كتابه " الصناعتين " حتى إنك ترى – أحياناً – أن اللفظين مترادفان ، وتارة أخرى تجدهما مختلفين وهكذا (٨).

فإذا ما جئنا إلى الشيخ عبد القاهر رأينا نموذجاً آخراً ، ومفكراً يختلف عمن سبقه فهو حين يتصدى لتوضيح هذين اللفظين ليحدد مفهومهما وما يدلان عليه يشير إلى أن من تقدمه لم يحدد المراد منهما ، ولم يعين المقصود بهما فتراه يقول: " ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء فى معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفى بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيحاء والإشارة فى خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبئ ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج..." (٩).

ومن هنا أوضح الشيخ – رحمه الله تعالى – أن الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وكا ما شاكل ذلك إنما يدور حول معنى واحد – وإن تعددت الأساليب وتباينت المواقف – هو تصوير المعنى المقصود إبرازه وإعلانه ؛ ولذا نراه يقول فى موضع آخر من الكتاب نفسه: " ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة ، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى ، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وازين وآنق وأعجب وأحق لأن تستولى على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بان تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، وتختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية (١٠) " وكأن الشيخ يريد أن يقول : إنه لا فرق فى المعنى بين النظم من جهة وبين الفصاحة، والبلاغة ، والبيان ، والبراعة، وما جرى مجرى هذه الكلمات، فكلها ألفاظ تؤدى معنى واحداً عند الإمام –رحمه الله تعالى– ومن أجل ذلك نراه يرفض أن توصف الكلمة المفردة بالفصاحة ، لأن الألفاظ لا

(٨) سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر د/ محمد جلال الذهبى ص٩ ط: الأمانة.
(٩) الدلائل ص٣٤.
(١٠) الدلائل ص٤٣.

تفاضل فيما بينها ، من حيث هى ألفاظ ، وإنما التفاضل بينهما من خلال وضعها فى التراكيب ، وعلى هذا فإذا قيل: " هذه لفظة فصيحة فإنما يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها ، ولو كانت فصيحة لذاتها لوجب أن تكون فصيحة فى كل موضع ، وهذا مما يبطله الواقع، إذ كثيراً ما نجد لفظة موصوفة بالفصاحة فى موضع ونجدها هى بعينها ثقيلة نابية فى موضع آخر ، ألم يقل النقاد : إن لفظة " أيضاً " لن تحسن فى موضع مثل حسنها فى قول الشاعر:

غير أنى بالهوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

ألم يقولوا كذلك : إن لفظ " ضيزى " بمعنى جائرة لم يحسن أبداً كحسنه فى قوله تعالى : " تلك إذا قسمة ضيزى " النجم ٣٢. ثم انظر إلى الشيخ نفسه وهو يقول : " مما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر كلفظ " الأخدع " فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى وجعت من الإصغاء ليتاً واخدعا(١١)

وبيت البحترى:

وإنى وإن بلغتنى شرف الغنى واعتقت من رق المطامع أخدعى

فإن لها فى هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتاملها فى بيت أبى تمام:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك(١٢)

فتجد لها من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة ومن الإيناس والبهجة.

(١١) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق ، والليت : صفحة العنق أو أدناه.

(١٢) الخرق – بضم الراء : الحمق.

ومن أعجب ذلك لفظة " الشئ " فإنك تراها مقبولة حسنة فى موضع وضعيفة مستكرهة فى موضع وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

ومن مالىء عينيه من شئ غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وقول أبى حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شئ لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ، ثم انظر إليها فى بيت المتنبى:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شئ عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم (١٣)

إذن ما سر حسنها إذا حسنت، وسر قبحها إذا قبحت ؟ نعم هناك سبب وراء ذلك لكنه ليس ذاتياً فيها .

" فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب فى ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم ، لما اختلف بها الحال، لكانت إما أن تحسن أبداً، أو لا تحسن أبداً"(١٤).

فالسر إنما هو فى ملاءمة الجوار وتلاقى اللفظة مع معانى جاراتها تلاقى اللبنة فى البناء المتكامل الذى يكاد يخفى فيه حد كل لبنة ، ولا تستطيع أن تقول: إن قوته فى هذه اللبنة أو تلك ، وإن كنت فى الوقت نفسه تقول مطمئناً : إنها من مجموع هذه اللبنات ، والأمر بالضد إذا ما نظرنا إلى الحالة المقابلة – حالة القبح – وعدم انسجام اللفظة (١٥).

(١٣) دلائل الإعجاز ص٤٦ ، وما بعدها.
(١٤) المرجع السابق ص٤٨.
(١٥) سمات البلاغة ص١٨ ، ١٩ د/ جلال الذهبى.

هذا هو حـــال معنى الفصاحة والبلاغة عند السيخ عبد القاهر – رحمه الله .

نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر:

من أهم النظريات فى البلاغة العرّبية، نظرية "النظم" تلك النظرية العبقرية التى قدم الإمام من خلالها منهجاً بارعاً لدراسة النص الأدبى باعتباره بناء لغوياً خاصاً، يكتسب قيمته من صـــياغته وتأليفه.

وقد تعرض كثير من العلماء قبل الشيخ عبد القاهر للنظم ، بل إن ابن النديم ينسب إلى الجاحظ أنه وضع كتاباً فى " نظم القرآن " كما أشار الباقلانى إلى هذا الكتاب فى كتاب " إعجاز القرآن " ولكنه ذهب إلى أن الجاحظ لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عمـــا يلتبس به أكثر هذا المعنى ، وقد تحدث الباقلانى نفسه عن النظم فى القرآن الكريم (١٦).

ولكننا لا نعرف أحداً قبل عبد القاهر جعل من النظم نظرية بلاغية ونقديـــة متكاملـــة الأركان ، ومنهجاً بلاغياً فى تناول النص الأدبى وتقويمه ، وإطاراً عاماً لقواعد بلاغية تفصـــيلية تقدم لدارسى النص الأدبى أدوات رائعة لتذوق النص ومعالجته .

وقد عرض الإمام عبد القاهر لهذه النظرية فى كتابه " دلائل الإعجاز " عرضاً مفصـــلاً ، وكذلك أشار إليها فى كتابه الثانى " أسرار البلاغة " .

ما المقصود بالنظم:

يعرف الإمام عبد القاهر – رحمه الله تعالى – النظم بقوله: "اعلم أن ليس " النظم " إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه " علم النحو " وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك ، فلا تخل بشئ منها ، ذلـــك أنـــا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه " (١٧) إذاً فمفهوم النحو عند الشيخ أكثر اتساعاً من مفهومه المتعارف المألوف ، حيث يتسع عنده ليشـــمل إلى جـــوار

(١٦) ينظر: الفهرست ص٥٧ ، المكتبة التجارية ١٣٤٨هـــ، وينظر: إعجاز القرآن ص٥٦ ، ومـــا بعـــدها ط: مصطفى الحلبى، ط: أولى سنة ١٣٩٨هـــ١٩٧٨م.

(١٧) الدلائل ٨١.

مراعاة أواخر الكلمات من حيث الإعراب والبناء تركيب الجملة وتاليفها وفق ما يقتضى المعنى ويتطلب ، ومعرفة الخواص التركيبية للعبارة ، وهذا الأصل هو الذى دارت حوله دراسة الإمام عبد القاهر فى " دلائل الإعجاز " محاولاً إثباته وبيانه ورجوع المزية إليه ، وكانت دراسة الفصل والوصل والتقديم والتأخير والحذف والذكر فروعاً تفرعت من هذا الأصل ، وكذلك كانت دراسة الاستعارة والكناية وضروب المجاز ، فقد حاول أن يربطها بالنظم ، وبيّن أنه عنها يحدث وبها يكون.

وفى ضوء هذا المقياس الجديد رفض ما قاله فريق : من رجوع المزية إلى اللفظ ، وما قاله آخرون من رجوع المزية إلى المعنى ، وبين أنها لا ترجع إلا إلى النظم بهذا المفهوم الذى حدده(١٨).

فمدار النظم – عنده – على معانى النحو، والفروق التى من شأنها أن تكون فيه، وليس النظم إلا توخى النحو فى معانى الكلم

ويأخذ الإمام عبد القاهر فى تفصيل المزية وبيان الجهات التى منها تعرض فتراه يحلل الاستعارة فى قول الشاعر:

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

مؤكداً أنها على لطفها وغرابتها ، إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف ، فأزل كلا منها عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه ، فقل: " سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره " ثم انظر كيف يكون الحال ، وكيف يذهب الحسن والحلاوة ؟ وكيف تعدم أريحيتك التى كانت ؟ كيف تذهب النشوة التى كنت تجدها ؟ " (١٩).

(١٨) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د/ محمد أبو موسى ص٨٩ ط: دار الفكر العربى.
(١٩) الدلائل ص٩٩.

وقد أتى الشيخ عبد القاهر بالمزيد من الأمثلة والنصوص ، محللاً وشارحاً داعماً بها رأيه الذى انتهى إليه ، مقرراً – فى نهاية تحليله لهذه الأمثلة وتلك النصوص – أن المزية للكلام فى نظمه باعتبار ملاءمة معنى اللفظة للتى تليها.

وخلاصة ما يقرره الشيخ عبد القاهر فى نظرية النظم:

١ – أنه لا فصل بين الكلام ومعناه ، ولا بين اللفظ والمضمون، والصورة والمحتوى.

٢ – أن البلاغة مرجعها إلى النظم لا إلى الكلمة المفردة ولا فى المعانى المجردة.

٣ – أن النظم هو توخى معانى النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معانى الكلمة ، وهذه النظرية بما اشتملت عليه من تطبيقات واسعة عند عبد القاهر لم يعرض لها – هذا العرض – أحد قبله ، فقد اجتهد فى إيضاحها، ودفع الشبه عنها ، والرد على من يعترض عليه فيها ، وهذا أمر ملاحظ بوضوح وجلاء فى كتاب " دلائل الإعجاز" من أوله إلى آخره.

وقد أثرى الإمام عبد القاهر بنظريته فى النظم البلاغة العربية والنقد الدبى إثراءً جليلاً فى نقد النصوص والأساليب ، وتحليلها واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها ، وبما عرض له من أحكام نقدية على أساليب كثيرة من ضروب الشعر والنقد ، معتمداً فى ذلك على ذوقه الأدبى الخالص فى كل ما يقرره من أحكام مقرراً أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعاً من السامع ولا يجد لديه قبولاً حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة والمران والدربة (٢٠).

شواهد على فساد النظم:

عرض الإمام عبد القاهر لأمثلة من فساد النظم ، ومهد لبيان وجه الفساد فيها بقوله: " هذه جملة لا تزداد فيها نظراً ، إلا إذا ازددت لها تصوراً، وازدادت عند صحة وازددت بها ثقة..." .

ثم يقول: " ويكفيك أنهم قد كشفوا عن وجه ما أردناه حيث ذكروا فساد النظم، فليس من أحد يخالف فى نحو قول الفرذدق:

(٢٠) ينظر: قضايا بلاغية للدكتور / صلاح شحاتة ص٦٦، ٦٧ ط: المكتبة التوفيقية سنة ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

وما مثله فى الناس إلا مملكاً أبو أمه حى أبوه يقاربه(٢١)

ووجه الفساد فى هذا البيت أنه قدم المستثنى منه والصفة على الموصوف، وفصل بين الصفة والموصوف ، وبين المبتدأ والخبر، أى: وما مثل هذا الممدوح حتى يقاربه فى الفضائل إلا صاحب مملك ، وأبو أم ذلك المملك أبو هذا الممدوح ، وخلاصة المعنى أن الممدوح لا يشبهه أحد إلا ابن اخته وهو هشام بن عبد الملك:

وقول المتنبى:

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

ووجه الفساد فى هذا البيت خفاء مرجع اسم الإشارة ، والإتيان بالهاء بلا داع ، وتقديم معمول اسم الفاعل عليه .

والمقصود بالجفن – هنا – هو غمد السيف ، والمتنبى يعلل تسميته بذلك من أجل أنه يعمل فى القلوب عمل السيف .

ويعلق الإمام – رحمه الله تعالى – على هذين البيتين وأمثالهما مما ذكر بعدهما فيقول: " وفى نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم ، وعابوه من جهة سوء التأليف ، أن الفساد والخلل كان من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير صواب وضع فى تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار أو غير ذلك مما ليس له .

أن يصنعه، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم"(٢٢) يعنى بذلك علم النحو وأصوله ، ولذا تراه يقول بعد ذلك : " وإذا ثبت أن سبب فساد النظم واختلاله أن لا يعمل بقوانين هذا الشأن ، ثبت أن سبب صحته أن يعمل عليها"(٢٣) .

(٢١) الدلائل ص٨٣.
(٢٢) الدلائل ص٨٤ .
(٢٣) المرجع السابق ٨٤ .

شواهد على محاسن النظم:

هناك نصوص راقت الإمام عبد القاهر ، فأثنى عليها وأطرها ، وأرجع ما فيها من فضل ومزيه وجمال إلى ما روعى فيها من قوانين النحو ، فيقول:

" وإذ قد عرفت ذلك ، فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن ، وتشاهدوا له بالفضل ثم جعلوه كذلك من أجل " النظم " خصوصًا ، دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر، من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل فى النظم وتأمله فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت ؟ وعند ماذا ظهرت؟ فإنك ترى عيانا أن الذى قلت لك كما قلت .

أعمد إلى قول البحترى:

بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثا ... ث عزما وشبكاً ورأيا صليبا

تنقل فى خلقى سؤدد ... سماحا مرجى وبأسا مهيبا

فكالسيف إن جئته صارخا ... وكالبحر إن جئته مستثيبا (٢٤)

فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ، ووجدت لها اهتزازاً لها فى نفسك ، فعد فانظر فى السبب واستقصر فى النظر ، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر ، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التى يقتضيها " علم النحو " فأصاب فى ذلك كله ، ثم لطف موضع صوابه ، وأتى مأتى يوجب الفضيلة .

أفلا ترى أن أول شئ يروقك منها قوله: " هو المرء أبدت له الحادثات " ثم قوله: " تنقل فى خلقى سؤود " بتنكير " السؤود: وإضافة الخلقين إليه ثم قوله: فالسيف " وعطفه بالفاء مع

(٢٤) الضرائب: جمع ضريبة ، وهى الطبيعة والخلق ، والضريب ، المثيل والشبيه ، والمستثيب: طالب الثواب .

حذفه المبتدأ ، لأن المعنى لا محالة : فهو كالسيف ، ثم تكريره "الكاف" فى قوله: " وكالبحر " ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطاً جوابه فيه ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر ، وذلك قوله " صارخا " هناك " ومستثيبا " ههنا؟ لا ترى حسنا تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددت ، أو ما هو فى حكم ما عددت ، فاعرف ذلك(٢٥) ثم يعرض الإمام عبد القاهر لنص أدبى آخر ، فيحلل جمال النظم فيه ويدلل به على ما ذهب إليه من أن مرجع الجمال والحسن هو فى توخى معانى النحو بين الكلم والعمل على عدم الخروج على قوانينه المعروفة فيقول: " وإن أردت أظهر أمراً فى هذا المعنى ، فانظره إلى قول إبراهيم بن العباسى:

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب وسلط أعداء ، وغاب نصير

تكون عن الأهواز دارى بنجوه ولكن مقادير جرت وأمور

وإنى لأرجو بعد هذا محمداً لأفضل ما يرجى أخ ووزير(٢٦)

فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ، ومن الحسن والحلاوة ثم تفتقد السبب فى ذلك ، فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذى هو" إذ نبا " على عامله الذى هو " تكون " ولم يقل " كان " ثم أن نكر الدهر ولم يقل: " فلو إذ نبا الدهر " ثم أن ساق التنكير فى جميع ما أتى به من بعد ، ثم أن قال: " وأنكر صاحب " ولم يقل وأنكرت صاحبا ، لا ترى فى البيتين الأولين شيئا غير الذى عددته لك تجعله حسنا فى النظم ، وكله من معانى النحو كما ترى ، وهكذا السبيل أبداً فى كل حسن ومزيه رأيتهما قد نسبا إلى النظم وفضل وشرف أحيل فيهما عليه ثم يقرر الشيخ عبد القاهر أن هذه المزايا فى النظم لا تكون إلا بحسب المعانى والأغراض التى تقصد ويوضع لها الكلام فتراه يقول: " وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معانى النحو ، وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه ، فأعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها ، ثم أعلم أن ليست المزية بواجبة لها فى أنفسها ،

(٢٥) الدلائل : ص٨٤ ، وما بعدها .

(٢٦) يقصد بهذا الشعر الوزير محمد بن عبد الملك الزيات .

ومن حيث هى على الإطلاق ، ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض " (٢٧) .

هذا ... ولقد كان هدف الإمام عبد القاهر الأساسى من هذه النظرية التى بنى عليها كتابه " دلائل الإعجاز " من أوله إلى أخره ، هو إثبات أن الإعجاز القرآنى مرجعه إلى " النظم " لا لشئ آخر .

ومن ثم تراه يتحدث عن هذه النظرية وتطبيقاتها الواسعة فى مختلف أساليب البيان ، ويتهدى بذوقه وإحساسه بين روائع الشعر والأدب، دارسا لها مبينا الفروق البيانية والأسلوبية بين بعضها، كما يهتدى بفطنته وذكائه إلى مناهج مفصلة يبنى عليها مختلف أحكامه النقدية والبلاغية فى دقة وعمق وروعة فهم للأدب وخصائصه (٢٨) .

الإمام عبد القاهر وعلم البيان:

بعد هذه الدراسة التى يؤكد فيها رأيه الذى أسلفه فى نظرية " النظم " وبنى عليها كتابه الأول " لائل الإعجاب " تأتى بحوثه الممتعه فى فنون البيان لأول مرة فى تاريخ العربية ، وإن كانت أكثر تلك الفنون قد درسها قبل عبد القاهر علماء ونقاد آخرون من أمثال ابن المعتز وقدامة بن جعفر ، وأبى هلال العسكرى ، والقاضى الجرجانى وابن رشيق ، وابن سنان الخفاجى ، لكنهم لم يحرروها ولم يبحثوا دقائقها على نحو ما بحثها وحررها الإمام عبد القاهر فى كتابه " أسرار البلاغة " فقد ميز أقسامها وفروعها وحلل أمثلتها تحليلا بارعا وبين عيوبها ومحاسنها وربطها ربطا وثيقا بالدراسات النفسية (٢٩) .

فملامح هذا العلم من علوم البلاغة الثلاثة لم تتبلور فى نظرية متكاملة إلا فى هذا الكتاب ، وبهذا نستطيع أن نقول باطمئنا بأن الإمام عبد القاهر هو الذى أرسى دعائم علم البيان ، كما أرسى من قبل دعائم علم المعانى ، وقد رصد الشيخ عبد القاهر كتابه " أسرار البلاغة " دراسة

(٢٧) الدلائل ص٨٧ .

(٢٨) ينظر: قضايا بلاغية د/ صلاح شحاته ص٧٥ .

(٢٩) ينظر: البلاغة وتطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص١٩٠ ، البيان العربى د/ بدوى طبانه ص١٩١ .

مباحث " علم البيان " إذا استثنينا بعض المباحث البديعية التى وردت فى ثنايا الكتاب ، كالسجع ، والتجنيس، والتطبيق وحصن التعليل وإن كان لم يطلق عليه مصطلح " البيان " كما تناول بعض مباحثه أيضا فى كتاب " دلائل الإعجاز " بل إن بابا كاملاً من أبواب علم البيان وهو " باب الكناية " لم يعرض له الشيخ فى " أسرار البلاغة " مكتفيا بتناوله له فى الدلائل ، ولكن وجه اهتمامه إلى التشبيه والاستعارة حيث تعمق فى بيان أسرار بلاغتهما وما يتملكانه من طاقات فنية وتعبيرية بالغة ، وإن كان قد تناول شيئا من الاستعارة والمجاز فى " دلائل الإعجاز " فقد كان هدفه منه التدليل على أن نظريته ليست محصورة فى أبواب المعانى فحسب وإنما تمتد لتشمل الصور البيانية أيضا ، التى حاول أن يثبت أن جمالها الفنى لا يرجع إلى مجرد ما فيها من استعارة ومجاز، وإنما هو راجع قبل ذلك إلى طريقة تأليف هذه الاستعارة وصياغتها ونظمها (٣٠) ، فتراه يعرض ويحلل الاستعارة فى قوله تعالى: " واشتعل الرأس شيبا " (٣١) بما يدعم رأيه فى النظم فيرى أن ليس مرد البلاغة والروعة فيه إلى مجرد استعارة الإشتعال للمعان الشيب فى الرأس وإنما مرده قبل ذلك ما فيه من نظم وتأليف ، حيث أسند الفعل " اشتعل " إلى الرأس ، ولم يسند إلى فاعله الأصلى وهو الشيب الذى جاء منكراً منصوباً على التمييز(٣٢) .

أما فى أسرار البلاغة " فإن الشيخ عبد القاهر تتبع أكثر فروع البيان بتعمق أكبر حيث تناول التشبيه والاستعارة بأعمق فكرة وأوضح بيان ، مشيراً إلى ضرورهما وصورهما وجوانب بلاغتهما المتنوعة ، كل ذلك من خلال معالجتة للنصوص والأمثلة الشعرية والنثرية ، ومبينا مكانه الاستعارة من المجاز اللغوى ، والفرق بين المجاز اللغوى والعقلى إلى غير ذلك من مباحث " علم البيان " التى ورث بعضها عن السابقين ، فعمقه وبلوره وأنضجه حتى ليكاد يكون قد ابتكره ابتكاراً ، كما ابتدع بعضها ابتداعا كمبحث " التمثيل " الذى هو ضرب من ضروب التشبيه – وقد خصه الشيخ عبد القاهر بدراسة بالغة الدقة والعمق والبراعة حتى استوى مبحثاً من أهم مباحث البيان وأنضجها ، وتراه يفرق بين التمثيل وسواه من صور التشبيه بأن التمثيل ما كان وجه الشبه فيه عقليا ، وكان هيئة منتزعة من متعدد أو على حد تعبيره هوما " انتزع من

(٣٠) ينظر: البلاغة العربية د/ على زايد ص١٢٧ ، ١٢٨ .

(٣١) مريم ٤ .

(٣٢) يراجع دلائل الإعجاز ص١٠٠ ، ١٠١ .

عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه ، فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما فى حال الإفراد ، لا سبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورتهما"(٣٣) ويفرق الإمام عبد القاهر بهذا بين التمثيل والتشبيه المتعدد الأطراف الذى ينتزع فيه الشبه من متعدد ، ولكن لا يتم بين الأطراف ذلك الامتزاج الذى يحول العناصر الممتزجة إلى صورة واحدة متكاملة

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا دى وكرها العناب والحشف البالى (٣٤)

فإنه شبه الرطب الطرى من قلوب الطير بالعناب ، واليابس المتقادم منها بالحشف البالى ، وليس فى التشبيه هيئة ملاحظة فى أطرافه (٣٥) أما فى التمثيل فلا يمكن هذا الفصل بين الأطراف ؛ لأن التشبيه هنا انتزع من عدة أمور جمع بعضها إلى بعض ثم استخرج من مجموعها وجه الشبه ، فكان هيئة حاصلة من عدة أمور.

ويضرب الشيخ عبد القاهر أمثلة كثيرة للتمثيل ويحللها تحليلاً أدبياً مرهفاً وعميقاً ، يوضح من خلال مفهوم التمثيل عنده قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (٣٦) يقول الشيخ: " الشبه منتزع من أحوال الحمار ، وهو أنه يحمل الأسفار التى هى أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحوال التى ليست من العلم فى شئ ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويكد جنبيه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ، ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض ".

ثم يزيد الشيخ فى تحليل الصورة وتوضيحها وبيانها فيقول: " بيان ذلك: أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل ، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهو الأسفار التى فيها أمارات تدل على العلوم ، وأن يثلث ذلك بجهل الحمار ما فيها ، حتى يحصل الشبه

(٣٣) أسرار البلاغة ص١٠١ .

(٣٤) العناب: عنب الثعلب ، الحشف: أسوأ التمر .

(٣٥) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ د/ شوقى ضيف ص٣٠٢.

(٣٦) الجمعة : ٥.

المقصود ، ثم إنه لا يحصل من كل واحد من هذه الأمور على الانفراد ولا يتصور أن يقال : إنه تشبيه بعد تشبيه من غير أن يقف الأول على الثانى ، ويدخل الثانى فى الأول؛ لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لا يتعلق أيضاً بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار ، ثم لا يتعلق بهذا كله حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره ، فما لم تجعله كالخيط الممدود ، ولم يمزج حتى يكون القياس قياس أشياء يبالغ فى مزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صور كل واحد منها على الانفراد ، بل تبطل صورها المفردة التى كانت قبل المزاج ، وتحدث صورة خاصة غير اللواتى عهدت ، وتحصل مذاقة لو فرضت حصولها لك فى تلك الأشياء من غير امتزاج ، فرضت ما لا يكون =لم يتم المقصود ، ولم تحصل النتيجة المطلوبة ، وهى الذم بالشقاء فى شئ يتعلق به غرض جليل وفائدة شريفة ، مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول إلى تلك الفائدة ، واستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة والنعم الخطيرة من غير أن يكون ذلك الاستصحاب سبباً إلى نيل شئ من تلك المنافع والنعم " (٣٧).

ويمضى الشيخ عبد القاهر بمثل هذا الأسلوب الفذ البليغ فى البحث والتحليل يعالج جوانب " التمثيل " ويركز على بيان وظيفته البلاغية والدور التعبيرى الذى يؤديه فيتناول مجموعة كبيرة من الأمثلة مبيناً أثر التمثيل فى كل منها فى الكشف عن المعنى وإبرازه فى أبهى صورة وأحلاها ، وبعد أن يحلل هذه الصور تحليلا فنياً يحاول استخلاص العلة الفنية العامة للتأثير النفسى للتمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى فيقول: " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن "التمثيل" إذا جاء فى أعقاب المعانى ، أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها ، واستثارها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً.

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم وأهز للعطف وأسرع للإلف وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح وأوجب شفاعة للمادح ، واقضى له بعز المواهب والمنائح ، وأيسر على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

(٣٧) أسرار البلاغة : ١٠٢، ١٠٣.

وإن كان ذماً كان مسه أوجع وميسمه الذع ووقعه أشد وحده أحد.

وإن كان حجاجاً ، كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهى ، وإن كان افتخاراً كان شأوه أمد، وشرفه أجد ، ولسانه ألد وإن كان اعتزازاً كان إلى القلوب أقرب ، وللقلوب أخلب وللسخائم أسل ولغرب – أى حد – الغضب أفل وفى عقد العقود أنفث وعلى حسن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغياهب ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفى الغليل.

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه وتتبعت أبوابه وشعوبه"

وإذا أردت أن تعرف ذلك فتعهد الفرق بين أن تقول: " فلا يكد نفسه فى قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئاً ، وبين أن تتلو الآية – يعنى قول الله تعالى – مثل الذين حملوا التوراة ...إلخ(٣٨).

وتنشد قول الشاعر :

زوامل للأشعار لا علم عندهم ... يجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا ... بأوساقه أو راح ما فى الغرائر (٣٩)

ومن أمتع المباحث التى بحثها الإمام عبد القاهر بحثه فى الاستعارة فتراه يعرفها بقوله: " هى أن يكون للفظ أصل فى الوضع اللغوى معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية " (٤٠).

(٣٨) أسرار البلاغة : ١١٥ : ١١٧.

(٣٩) البيتان لمروان بن أبى حفصة ، و " الزوامل " جمع زاملة وهو: البعير يحمل عليه الرجل زاده ومتاعه "والأوساق" الأعمال ، والغرائر : جمع غرارة وهى الجوالق.

(٤٠) أسرار البلاغة : ص٣٠.

وواضح أنه يذهب هنا إلى أن الاستعارة مجاز أو عمل لغوى بينما ذهب فى "دلائل الإعجاز " إلى أنها مجاز أو عمل عقلى ؛ إذ تقوم كما قال هناك على التصرف فى المعانى العقلية ، وذلك أننا لا نستعير الأسد للرجل الشجاع إلا بعد دخول الرجل فى جنسه (٤١) وقد مضى الشيخ عبد القاهر يقسم الاستعارة إلى مقيدة وغير مقيدة ومثل للثانية بإطلاق مشفر البعير على شفة الإنسان إطلاقاً قاصراً من غير ملاحظة المبالغة وفى وصف الشفة بالغلظ والتدلى.

وذلك أنهم وضعوا للعضو الواحد أسامى كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو وضع " الشفة " للإنسان ، و" المشفر " للبعير و" الجحفلة " للفرس ... فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها فى غير الجنس الذى وضع له فقد استعاره ونقله عن أصله وجاز به موضعه كقول العجاج:

وفاحماً ومرسنا مسرجاً (٤٢)

يعنى أنفاً يبرق كالسراج و" المرسن " فى الأصل للحيوان ؛ لأنه الموضع الذى يقع عليه "الرسن".

وقال آخر:

فبتنا جلوساً لدى مهرنا نترع من شفتيه الصفار (٤٣)

فاستعمل " الشفة " فى الفرس وهى موضوعة للإنسان ، فهذا ونحوه لا يفيدك شيئاً لو لزمت الأصلى يحصل لك فلا فرق من جهة المعنى بين قوله من " شفتيه " وقوله : من جحفلته ، ولو قاله إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب (٤٤).

(٤١) يراجع دلائل الإعجاز ص٤٣٥.

(٤٢) الفاحم: شعرها الأسود ، ثم ذكر الأنف.

(٤٣) الصفار: يبس البهمى وهو أحرار البقول ترعاه الدواب ويخرج لها إذا يبست شوك يعلق بأنوف الإبل والخيل فيزعه الناس من أفواهها وأنوفها .

(٤٤) أسرار البلاغة ص٣٠ ، وما بعدها .

ثم تحدث عن الاستعارة المفيدة ، وهى التى يقصد بها قصداً إلى المبالغة مثل " كلمت بحراً " أى: جواداً ... وقال : وهكذا أفدت باستعارة البحر سعته فى الجود وفيض الكف (٤٥).

فالمدار على المبالغة فى وصف الاستعارة بأنها مفيدة ، فإذا سقطت المبالغة سقطت الفائدة ثم يتحدث الإمام عن فضائل الاستعارة وخصائصها وأثرها النفسى وأنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجنى من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر... فإنك لترى بها الجماد حيانا طلقا ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية بادية جلية ... إن أردت المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون (٤٦).

ثم يأخذ الشيخ عبد القاهر فى بيان أقسام الاستعارة فيقول: إنها إما أن تجرى فى الأسماء وإما أن تجرى فى الأفعال (٤٧). وسمى البلاغيون بعده هذين القسمين على الترتيب باسم الاستعارة الأصلية والتبعية ، ويقسم التى تجرى فى الأسماء قسمين ، فهى إما محققة ، وإما مرموزاً إليها ، أو كما قال البلاغيون بعده إما تصريحية وإما مكنية ، والأولى: هى التى ينقل فيها الاسم عن مسماه الأصلى إلى شئ آخر ، وكأنك تدل به على صفة لموصوف مثل " كلمت أسداً " وأنت تعنى رجلا شجاعاً ، والثانية : لا ينقل فيها اسم عن مسماه الأصلى ، وإنما تثبت لشئ لازمه لشئ آخر كقولك: " يد الريح تضرب الشجر ضرباً عنيفاً فإنك لا تستطيع أن تزعم هنا نقلاً إذ ليس المعنى على أنك شبهت شيئاً باليد، بل المعنى على أنك أردت أن تثبت للريح يداً، فالمشبه به لا يلقاك مباشرة وإنما يلقاك بما أضيف منه إلى المشبه، وفرق ثان هو أن وجه الشبه فى القسم الأول موجود فى المشبه ، وأما فى القسم الثانى فلا يوجد شبه ، إنما هو وصف تكسبه المشبه وتعطيه له إذ تجعل كما فى المثال السابق للريح يداً وقوة وتصرفاً .

(٤٥) أسرار البلاغة : ٣٣.
(٤٦) أسرار البلاغة : ٤٣.
(٤٧) أسرار البلاغة : ٤٤.

وهى ملاحظة دقيقة فإن الاستعارة المكنية لا تقوم على التشبيه وإنما تقوم على بث الحركة والحياة فى المشبه لغرض المبالغة (٤٨).

الإمام عبد القاهر وعلم البديع:

كان علم البديع أهون علوم البلاغة الثلاثة حظاً من اهتمام الشيخ عبد القاهر وعنايته ، فإذا كان قد أفرد لكل من علمى "المعانى" و " البيان " كتاباً مستقلاً تناول فيه بالبحث الدقيق والدراسة المستفيضة مباحثه فإن مباحث علم البديع لم تحظ منه بأكثر من صفحات معدودات فى كتابيه تناول فيها الجناس والسجع وبعض الإشارات إلى المزاوجة والحشو وحسن التعليل والطباق .

وقد ركز الإمام فى دراسته للتجنيس والسجع على الوظيفة التعبيرية والأثر النفسى لهما من ناحية أخرى فالمحسن البديعى لا ينبغى أن يكون هدفاً فى ذاته ، ولا ينبغى أن يكون حلية شكلية تضاف إلى الصورة وإنما لا بد أن يكون له دور فى نقل المعنى وإيصاله وأن ينسجم فى الوقت نفسه مع البناء العام للتركيب البلاغى ولا يكون على حساب هذا البناء ، ومن ثم فإنه يقارن بين بعض صور التجنيس المتكلف الغث من مثل قول أبى تمام:

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

وبعض صوره الجيدة البارعة من مثل قول أبى الفتح البستى:

ناظراه فيما جنى ناظراه أودعانى أمت بما أو دعانى

ويقرر أن استهجاننا للأول واستحساننا للثانى " لم يكن لأمر يرجع إلى اللفظ ، ولكن لأنك رأيت الفائدة ضعفت فى الأول وقويت فى الثانى ، وذلك أنك رأيت أبا تمام لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة لا تجد لها فائدة – وإن وجدت – إلا متكلفة متحملة ،

(٤٨) ينظر: أسرار البلاغة من ص٤٤: ٥١، والبلاغة تطور وتاريخ ص١٩٤.

ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك ، وقد أحسن الزيادة ووفاها" (٤٩).

يعنى أن السبب فى استهجان قول أبى تمام أنه لم يعبد الطريق إلى المعنى ، وإنما شاكله فتفرق بنا السبيل إليه ، فما المقصود يا ترى من هذين اللفظين أمذهب أم مذهب أيقصد ، هل كرمه هذا مذهب جديد فى السخاء أو انه قد فقد عقله فبدد ما عنده ؟ هذا على فتح الهاء فى الثانى ، أما على كسرها فإنه يمكن أن يكون المعنى: إنه مبيد للمال مفن له.

أما السر فى استحسان قول أبى الفتح فإنما هو قوة المعنى وزيادته بعد أن أوقع فى وهمنا أنه لا زيادة فيها ، وأن ما ورد ثانياً هو عين ما ورد أولاً. فالفائدة أتت بعد نوع من الخداع كاد يؤيسنا من الفائدة فإذا بها تأتى بعد يأس منها وعدم احتساب لها فكان وقعها فى النفس لذلك حميداً .

والحاصل أن سر الحسن وسر القبح إنما رجعاً إلى المعنى وفاءً به فى الثانى وتقصيراً فى حقه فى الأول ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يصح القول بأن الحسن والقبح فى التجنيس لم يرجعا إلى اللفظ(٥٠) ولذا ترى الشيخ يقول: " أما التجنيس فإنك لا تستحسن اللفظين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ".

أما السجع فإن موقف الشيخ منه هو نفس موقفه من الجناس فلم يركن إلى تعريفه وتقسيمه وإنما عمد إلى الغاية التى من أجلها يصنع ، فتراه يطلب عدم التوسع فى استخدامه حتى لا يؤول ذلك إلى أن تعكس أغراض الكلام ، فتصبح المعانى خدماً للألفاظ حلياً ووشياً خالصاً يغمر المعانى حتى لا تكاد تتضح ولذا تراه يقول: " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه، وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه ، أو ما هو — لحسن ملاءمته وإن كان

(٤٩) أسرار البلاغة : ٧٠.

(٥٠) أسرار البلاغة : ص٧ ، ودلائل الإعجاز ص٥٢٣، ٥٢٤، مع اختلاف يسير فى العبارة.

مطلوباً– بهذه المنزلة ، وفى هذه الصورة ، وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعى – رحمه الله تعالى – وقد سئل عن النبيذ فقال: " أجمع أهل الحرمين على تحريمه " (٥١).

ثم يورد الشيخ مثالاً للسجع المحمود الذى يساق عفواً وبدون تعمد فى طلبه حتى لا يدخل الخلل على كلامه ، ويتزيد بما لا فائدة فيه فيقول : " ومثال ما جاء من السجع هذا المجئ ، وجرى هذا المجرى فى لين مقادته ، وحل هذا المحل من القبول قول القائل: اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً ، فلا مجد إلى بفعال ولا فعال إلا بمال " وقول ابن العميد : " فإن الإبقاء على خدم السلطان عدل الإبقاء على ماله ، والإشفاق على حاشيته وحشمه عدل الإشفاق على دينار ودرهمه " .

ولست تجد هذا الضرب يكثر فى شئ ويستمر كثرته واستمراره فى كلام القدماء ، كقول خالد ابن صفوان الخطيب: " ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة ، وبهيمة مهملة " وقول الفضل ابن عيسى الرقاشى : " سل الأرض فقل: من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً اجابتك اعتباراً " (٥٢).

ثم يقول الشيخ:

" فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول هو ان المتكلم لم يقد المعنى نحو التحسين ، والسجع بل قاده المعنى إليهما ، وعثر به عليهما ، حتى إنه لو راق تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر " (٥٣) .

وهكذا ينظر الشيخ عبد القاهر إلى المحسنات البديعية ، وينبه إلى ذلك الخطر الذى كان قد ابتدأ يزحف إلى أدبنا العربى ، والذى يتمثل فى ولع الشعراء والأدباء بالمحسنات البديعية ، وإلى إسرافهم فى استخدمها بشكل متكلف متعسف ، ويوجه البلاغيين إلى المنهج القويم فى دراسة هذا البديع ، من حيث ربطه بالوظيفة التى يؤديها فى العبارة من ناحية ، وبانسجامه مع النسيج العام للعبارة من ناحية أخرى.

(٥١) أسرار البلاغة : ص١١.

(٥٢) نفسه ص١٢.

(٥٣) نفسه ص١٤ .

وبهذا وصلت البلاغة العربية على يد الإمام عبد القاهرة الجرجانى إلى ذورة نضجها واكتمالها، وتكاملت فنونها وعلومها.

تطبيقات الزمخشرى فى الكشاف

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى الملقب بجار الله وبفخر خوارزم الإمام الكبير فى التفسير والنحو واللغة والأدب المعتزلى العقيدة ، الحنفى المذهب ولد بزمخشر من أعمال خوارزم سنة سبع وستين وأربعمائة .

أخذ الأدب عن ابن جرير الضبى الأصفهانى ، وعلى بن المظفر النيسابورى ، وسمع من شيخ الإسلام أبى منصور الحارثى ، ومن أبى سعيد الشقانى فى جماعة آخرين ورحل كثيراً فأقام ببغداد مدة ، وجاور بمكة طويلا حتى لقب بجار الله ، وأملى بها تفسيره " الكشاف" وعاد إلى وطنه وتوفى به ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وله مصنفات جليلة بجانب الكشاف ، من أهمها " المفصل " فى النحو وقد عنى به من جاءوا بعده فشرحوا مرارا ومنها " الفائق فى غريب الحديث " ومعجمه " أساس البلاغة " ، وأطواق الذهب فى المواعظ والمناهج فى الأصول ، والرائض فى علم الفرائض ، والمستقصى فى الأمثال ، وأما ديوانه فلم ينشره حتى الآن (٥٤) .

وقد نال الزمخشرى شهرة مدوية فى العالم الإسلامى منذ عصره بسبب " الكشاف " إذا استطاع أن يقدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن الكريم تعينه فى ذلك بصيرة نافذة تتغلغل وتكشف عن خفاياه ودقائقه ، كما يعينه ذوق أدبى مرهف يقيس الجمال البلاغى قياساً دقيقاً ، وما يطوى فيه من كمال وجلال ، بل هو من هذه الناحية ليس له قرين سابق ولا لاحق فى تاريخ التفسير ، ذلك لأنه أقبل على الدراسات البلاغية يعب منها وينهل ، ولم يلبث أن وجد خير مورد له كتابات الإمام عبد القاهر فى " دلائل الإعجاز " و "وأسرار البلاغة " فدرسها حتى تمثلها تمثيلا منقطع النظير وهو تمثل جعله يؤمن بأن المعرفة بالبلاغة وانماطها وأساليبها لا تكشف فقط عن وجوه الإعجاز البلاغى فى القرآن الكريم ، بل تكشف أيضا عن خفايا معانيه وخبيئاها وذخائرها المكنونة .

---

(٥٤) معجم البلدان مادة زمخشر ، معجم الآدباء لياقوت الحموى ١٢٦/١٩ ، وشذرات الذهبى ١١٨/٤ وبغية الوعاة للسيوطى ص٣٨٨ ، تاريخ علوم البلاغة ص١٠٣ ، وما بعدها .

ولو رجعنا إلى مقدمة تفسيره " الكشاف " لوجدناه يجعل علمى المعانى والبيان أهم عدة لمن يريد أن يفسر التزيل ، إذ بدونها لا تستقيم له الدلالات ولا تتضح له الإشارات ، ولا لطائف ما فى الذكر الحكيم من الجمال البلاغى المعجز الذى عنت له وجوه العرب وخروا ساجدين (٥٥) .

أولا تطبيق الزمخشرى لنظرية المعانى:

قد كانت علوم البلاغة واضحة تمام الوضوح فى ذهن الزمخشرى ومضى يطبقها على أى الذكر الحكيم مهتما اهتماما خاصا بعلمى المعانى والبيان لتشابكهما فى دلالات الألفاظ والتراكيب ، وفى أسرار الإعجاز القرآنى ولطائفه الدقيقة ، ولا نعلو إذا قلنا إن عنايته بعلم المعانى كانت أتم وأوسع لسبب طبعى ، وهو أن الشيخ عبد القاهر والقاضى عبد الجبار علا بعه الإعجاز فى القرآن الكريم ، فهو مدار الحجة القاطعة والدلالة الساطعة ، فنظم الكلام كما يتصوره الزمخشرى يعنى بيان الروابط والعلاقات بين الجمل ، وكيف يدعو بعضه بعضا وكيف يأخذ بعضه بحجز بعض وهذا ما قرره الشيخان قبل الزمخشرى(٥٦).

ولذا ترى عنايته بهذه النظرية وتطبيقه لقواعدها فى جوانب كثيرة من صفحات تفسيره .

يقول فى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ..... أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

(أولئك على هدى من ربهم) الجملة فى محل الرفع إن كان " يؤمنون بالغيب " مبتدأ ، وإلا فلا محل ونظم الكلام على الوجهين أنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب فقد ذهبت به مذهب الاستئناف ، وذلك أنه لما قيل هدى للمتقين واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك ؟ فوقع قوله ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدر وجئ بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التى استوجبوا بها من أن يلطف بهم ويفعل بهم مالا يفعل بمن ليسوا على صفتهم ، أى الذين

(٥٥) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ ص٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٥٦) ينظر البلاغة تطور التاريخ ص٢٢٢ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د/ محمد أبو موسى ص١٨٨ ط الفكر .

هؤلاء عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله – تعالى – ويعطيهم الفلاح ، ونظيره قولك: أحب رسول اللهﷺ الأنصار الذين قارعوا دونه وكشفوا الكرب عن وجهه ، وأولئك أهل المحبة وإن جعلته تابعا للمتقين وقع الاستئناف على أولئك ، كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا ، فإن قلت : هل يجوز أن يجرى الموصول على المتقين، وأن يرتفع الثانى على الابتداء وأولئك خبره ، قلت: نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله ﷺ وهم ظانون أنهم على الهدى ، وطامعون أنهم ينالون الفلاح (٥٧) .

فموضوع النظم هنا بحث علاقة الجملة بالجملة، وبيان وجه ارتباطها بها وإذا كان علم الإعراب يبين لنا المبتدأ والخبر والبدل والمبدل منه والجمل التى لا محل لها من الإعراب، لأنها مستأنفة، والجمل التى لها محل من الإعراب، إذا كان علم الإعراب يبين لنا هنا هذا فإن علم النظم هو الذى يبحث عما وراءه هذه الصناعة النحوية ويفسرها، ويكشف لنا ألوان المعانى التى وراءها، ولهذا تراه يقول:

" والذى هو أرسخ عرقا فى البلاغة أن يضرب عن هذه المحال (النحوية) صفحا وأن يقال: إن قوله " ألم جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها " وذلك الكتاب " جملة ثانية و (ريب فيه) ثالثة و (هدى للمتقين) رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جئ بها متنافسة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متأخية آخذا بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة ، بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به ، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة .. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله ، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة ففى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة ، وفى الثالثة ما فى تقديم

(٥٧) الكشاف ٣٢/١ ، وما بعدها نشر دار الريان للتراث .

الريب على الظرف ، وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر الذى هو " هدى " موضع الوصف الذى هو هاد ، وإيراده منكراً ، والإيجاز فى ذكر المتقين " (٥٨) .

وعلى هذا الشاكلة يمضى الزمخشرى فى تفسير الآيات وبيان تعلق بعضها ببعض تعلقا يكشف فى ثناياه عن جميع وجوه النظم التى تحدث عنها الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز .

ثانياً: تطبيقات الزمخشرى لنظرية البيان:

وعلى شاكله تطبيق الزمخشرى لنظرية النظم التى صورها الإمام عبد القاهر فى " دلائل الإعجاز " مضى يطبق نظرية البيان ، فتراه يفرق بين الكناية والتعريض يقول فى قوله تعالى: ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ .

" التعريض " هو أن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة " ومن غرضى أن أتزوج وعسى الله أن ييسر لى امرأة صالحة ونحو ذلك من الكلام الموهوم أنه يريد زواجها ، حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح ، فلا يقول: إنى أريد أن أنكحك ، أو أتزوجك ، أو أخطبك .. فإن قلت: أى فرق بين الكناية والتعريض قلت الكناية أن تذكر الشئ بغير لفظة الموضع له كقولك: طويل النجاد والحمائل لطويل القامة ، وكثير الرماد للمضياف ، والتعريض: أن تذكر شيئا تدل به على شئ لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ولذلك قالوا ، وحسبك بالتسليم منى تقاضيا وكأنه إمالة الكلام إلى غرض – أى جانب – يدل على الغرض ، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده (٥٩) .

ومن أمثلة تطبيقه فى باب الاستعارة وهى عنده – كما هى عند الإمام عبد القاهر – قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ يقول: " النقض الفسخ وإبطال التركيب ، فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ... وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشئ المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شئ من روادفه ، فينبهوا بتلك الرمزة

(٥٨) الكشاف ٣٦/١ ، ٣٧ .

(٥٩) الكشاف ٣٨٢/١ ، ٣٨٣ .

على مكانه ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس... لم تقل هذا وإلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر " (٦٠).

وواضح أنه يريد ههنا الاستعارة المكنية.

كما تراه يفرق بين التشبيه والاستعارة ، ويذكر الخلاف بين البلاغيين فى هذه المسألة ، ويميل إلى رأى طائفة سماها المحققين من علماء البيان وهؤلاءالمحققون فى ظننا كما يقول الدكتور محمد أبو موسى– على بن عبد العزيز الجرجانى والإمام عبد القاهر الجرجانى(٦١).

يقول فى قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ فإن قلت: كيف طريقته عند علماء البيان ؟ قلت قولهم: هم ليوث للشجعان، وبحور للأسخياء ، إلا أن هذا فى الصفات ، وذاك فى الأسماء ، وقد جاءت الاستعارة فى الأسماء، والصفات، والأفعال جميعاً تقول: رأيت ليوثاً ، ولقيت صما عن الخير ، ودجا الإسلام ، وأضاء الحق.

فإن قلت: هل يسمى ما فى الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه ، والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة ؛ لأن المستعار له مذكور ، وهم المنافقون، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه ، لولا دلالة الحال ، أو فحوى الكلام(٦٢).

أما المجاز المرسل فقد مضى الزمخشرى يوجه علاقاته ويحللها على ضوء ما ذكره الإمام عبد القاهر فى "أسرار البلاغة"(٦٣)

يقول تعليقاً على قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فإن قلت: النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟

(٦٠) الكشاف ١١٩/١، ١٢٠.

(٦١) ينظر: البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص٤٠٨، ٤٠٩.

(٦٢) الكشاف ٧٦/١، ٧٧.

(٦٣) يراجع الأسرار ٣٩٥ ، وما بعدها.

قلت: ذكر النسيان والخطأ والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفريط والإغفال ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ والشيطان لا يقدر على فعل النسيان ، وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذى منه النسيان" (٦٤).

يعنى أنه يشير إلى أن هذه الآية من باب المجاز المرسل التى علاقته المسببية ، أى: إطلاق المسبب وإرادة السبب .

وأما علاقة السببية فهى إطلاق السبب وإرادة المسبب فقد ذكرها عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ .

يقول: " وإنما قيل لعيسى " كلمة الله " و " قول الحق " لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها ، وهى قوله " كن " من غير واسطة أب ، تسمية للمسبب باسم السبب كما سمى العشب بالسماء ، والشحم بالندى " (٦٥).

ثالثاً: الزمخشرى وعلم البديع:

سبق أن قلنا إن الإمام عبد القاهر عرض لبعض ألوان البديع فى ثنايا كتابه " أسرار البلاغة " ولكنه لم يعن بتفصيل القول فيها كما فصل فى نظرية المعانى والبيان، وذلك راجع إلى أن ألوان البديع قد اهتم بها النقاد قبل عصر الإمام عبد القاهر وأكملوا بحثها وحصروا أنواعها ، فلم يلتفت إليها كثيراً حتى لا يكون كلامه تكراراً لما تناوله السابقون وإنما رأى أن الأولى والأجدر أن يتناول النظم الذى هو فى حاجة إلى وضع القواعد وتاصيل الأصول ، وأن يتناول كذلك البيان وأن يوضح الفروق بين ألوانه ، فهو قد اهتم بأمور فى حاجة إلى جهد، وانصرف عن أمور انتهى القول فيها، وهذا حق العالم الجاد (٦٦).

وهذا ما فعله الزمخشرى فى كشافه حيث إنه لم يتعرض إلى بسط الكلام فى ألوان البديع التى وردت فى القرآن الكريم كاهتمامه بعلمى المعانى والبيان ، وإن كان هذا لايغض من قيمة البديع ولا يسقط ديباجته ولا يذهب رونقه ، بل إن كلامه فى بعض صوره يوحى بأنه يقدر هنا

(٦٤) الكشاف ٣٣٢/١.

(٦٥) الكشاف ١٦/٣.

(٦٦) ينظر: البلاغة القرآنية ٤٨٣.

الفن حق قدره ويرفع من شأنه ، فتراه يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أى: لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحى أن يتمثل بها لحقارتها ويجوز أن تقع هذه العبارة فى كلام الكفرة ، فقالوا: أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ، فجاءت على سبيل المقابلة ، وإطباق الجواب على السؤال وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب ، منه قول أبى تمام:

من مبلغ أفناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل ؟

وشهد رجل عند شريح فقالك إنك لسبط الشهادة فقال الرجل : إنما لم تجعد عنى فقال: لله ردك وقبل شهادته ، فالذى سوغ بناء الجدار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها ، ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه (٦٧).

هنا وقد تبين مما تقدم أن الزمخشرى استوعب كل ما كتبه الإمام عبد القاهر فى " الدلائل والأسرار " ومضى يطبقه تطبيقاً دقيقاً واعياً على آى القرآن الكريم ، وكأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من آراء الشيخ إلا ساق عليها الأمثلة النيرة من القرآن الكريم ، ولم يقف عند ذلك ، وإنما استتم هذه الآراء مضيفاً إليها من حسه المرهف وعقله الثاقب.

(٦٧) الكشاف ١/١١٣.

مدرسة السكاكى

المباحث البلاغية فى مفتاح العلوم

ترجمة السكاكى:

هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكى ، ولد فى خوارزم سنة٥٥٥للهجرة ، ويظهر أن أسرته كانت تحترف صنع المعادن ، وخاصة السكك وهى المخاريث التى تفلح بهـا الأرض ، ومن ثم شاع لها لقب السكاكى ، وربما كانت تعنى بصنع السكة وهى حديدة منقوشة تضرب بها الدراهم .

وقد أجمع المترجمون له على أنه ظل إلى نهاية العقد الثالث من حياته يعنى بصناعة المعادن ، حتى وقر فى قلبه أن يخلص للعلم ويتفرغ له ، وإذا هو يكب عليه يحاول أن يلتهمه التهاماً.

شيوخه ومؤلفاته:

أما شيوخه فقد ذكرت كتب التراجم أنه تتلمذ على سديد الدين الخياطى وابن صـاعد الحارثى ، ومحمد بن عبد الكريم التركستانى وهم جميعاً من فقهاء المذهب الحنفـى ، وأشـاد فى مباحثه البلاغية بأستاذه الحاتمى ، وله مصنفات مختلفة لعل أهمها المفتاح، ويظهر أنه كان يشـتهر فى عصره شهرة واسعة ، حتى إن ياقوت الحموى ليقول عنه : " فقيه متكلم متفنن فى علوم شتى ، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان ".

وفـــاته :

توفى بخوارزم سنة ست وعشرين وستمائة للهجرة رحمه الله رحمة واسعة (٦٨).

أثر السكاكى فى البلاغة العربية:

لا يمارى منصف فى أن أبا يعقوب كان رجلاً قادر العقل حاد الذهن واسع الثقافة متضلعاً فى علوم شتى ، وقد كانت مباحث البلاغة تدرس قبله وكأنها جذاذات من الورق فى كل قطعـة منها مسألة ، ويختلف ترتيب هذه المسائل فى الكتب البلاغية كما يختلف ترتيب هذه الجـذاذات قبل أن تمتد نحوها يد تنظم وتنسق ، وهذا واضح فيما كتبه الإمام عبد القـاهر وفيمـا نشـره

(٦٨) انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموى ٥٩/٢٠، شذرات الذهب ، تاريخ علوم البلاغة للمراغـى ص١١٠، ١١١.

الزمخشرى فى كشافه ، نعم كان هناك إحساس بأواصر قوية بين الفنون المتصلة بدراسة الصورة البيانية فكان يجمع التشبيه مع المجاز والكناية فى نظام واحد ، إلا أن هذا كان إحساساً غائماً ، وقد يختلف فتختلط المسائل كما هو الحال فى كتاب "دلائل الإعجاز " .

وكان ذكر الزمخشرى لعلمى المعانى والبيان إشارة بينة إلى تتميز هذه المسائل وتصنيفها فى هذين العلمين، وإن كان ذلك لم يتم على يديه وكان من الخير – كما يرى السكاكى– أن تضبط مسائل هذين العلمين وأن تحدد تحديداً بيناً ، وأن تميز تمييزاً كاشفاً واضحاً فكان هو أول من فعل ذلك فحدد أبواب علم المعانى وحصرها ، وحدد أبواب علم البيان وحصرها فأتم بذلك ما بدأ الزمخشرى (٦٩).

منهجه فى كتابه " مفتاح العلوم " :

قسم السكاكى كتابه إلى ثلاثة أقسام أساسية ، تحدث فى القسم الأول منها فى علم الصرف ، وما يتصل به من الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر ، وجعل القسم الثانى لعلم النحو ، أما القسم الثالث فخص به علم المعانى وعلم البيان ، وألحق بهما نظرة فى الفصاحة والبلاغة ودراسة للمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية ووجد أن علم المعانى يحتاج من ينظر فيه إلى الوقوف على الحد والاستدلال ، أو بعبارة أخرى إلى الوقوف على علم المنطق ، ففتح له مبحثاً أحاط فيه بمسائله ، كما وجد أيضاً أن من يتدرب على علمى المعانى والبيان يحتاج إلى الوقوف على علمى العروض والقافية ، فأفرد لهما المبحث الأخير فى الكتاب ، وبذلك اشتمل المفتاح على علوم الصرف والنحو والمعانى والبيان والمنطق والعروض والقوافى(٧٠).

ونراه يصور فى تقديمه له طريقته فى تصنيفه فيقول: " وما ضمنت جميع ذلك كتابى هذا إلا بعد ما ميزت البعض عن البعض ، التمييز المناسب ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك ، مهدت لكل من ذلك أصولاً لائقة ، وأوردت حججاً مناسبة وقررت ما صادقت من

(٦٩) البلاغة القرآنية . محمد أبو موسى ص٥٠٤.

(٧٠) البلاغة تطور وتاريخ ص٢٨٧.

آراء السلف – قدس الله أرواحهم – بقدر ما احتملت من التقرير ، مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها وإيراد لطائف مفتنة ما فتق بها رتق أذن (٧١).

وشهرته إنما دوت بالقسم الثالث من الكتاب الخاص بعلمى المعانى والبيان ولواحقهما من الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية ، فقد أعطى لهذا كله الصيغة النهائية التى عكف عليها العلماء من بعده ، يتدارسونها ويشرحونها مراراً إذا استطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل ملخص دقيق لما نثره أصحابها من آراء ، وما استطاع أن يضيفه إليها من أفكار ، وصاغ ذلك كله صياغة مضبوطة محكمة استعان فيها بقدرته المنطقية فى التعليل والتسبيب ، وفى التجريد والتحديد والتعريف والتقسيم والتفريغ والتشعيب وكان عمدته فى ذلك كتابى عبد القاهر " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " و" الكشاف" للزمخشرى ، و " نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز " للإمام الرازى الذى لخص فيه كتابى الإمام عبد القاهر " الدلائل و الأسرار " .

ومن الحق والإنصاف أن تلخيصه أدق من تلخيص الفخر الرازى وكأنما كان عقله أكثر دقة وضبطاً للمسائل – فى هذا الفن خاصة – بل لقد كان أكثر تنظيماً وأسد تقسيماً ، مع ترتيب المقدمات وإحكام المقايسس وصحة البراهين ، وبذلك استقام تلخصيه بحيث ما نجد فيه عوجاً أو انحرافاً ، وإنما نجد فيه الدقة والقدرة البارعة على التبويب والإحاطة الكاملة بالأقسام والفروع ، غير أن ذلك عنده لم يشفع بتحليلات الشيخ عبد القاهر والعلامة الزمخشرى التى كانت تملأ النفوس إعجاباً وبهجة وأريحية ، فقد تحولت البلاغة فى تلخيصه إلى علم بأدق المعانى لكلمة علم ، فهى قوانين وقواعد تخلو من كل ما يمتع النفس ، إذ سلط عليها المنطق بأصوله ومناهجه الحادة حتى فى لفظها وأسلوبها الذى لا يحوى أى جمال (٧٢).

وحسبنا دليلا على ذلك أنه درس البيان فى هذا الكتاب بالروح التى درس بها فيه إلى جانبه علم النحو ، وعلم الصرف ، وعلم الاستدلال – وهو علم المنطق – وعلم العروض ، وعلم القوافى ، وهذا ما لم يفعله أحد من الذين سبقوه إلى الكتابة فى البيان ، لا لأنهم كانوا

(٧١) مفتاح العلوم ص٦. ت/ نعيم زرزور ، ط" دار الكتب العلمية – بيروت ، ثانية ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
(٧٢) البلاغة تطور وتاريخ ص٢٨٨.

يجهلون تلك العلوم التى أحصاها السكاكى ، ولكنهم نظروا إلى طبيعة هذا الفن فوجدوه علماً جمالياً يدرس الأسباب والعوامل المؤدية إلى اللغة الفنية وإحداث التأثير أو الإقناع فى نفس قارئ الأدب وسامعه (٧٣).

ولعل أول ما يسترعى انتباه قارئه أنه أودع البلاغة علمين أساسيين هما: علم المعانى ، وعلم البيان ، وجعل علم البديع تابعاً لهما وكان عجيباً فى تصوره لطريقة ضبط معاقد كل علم منها:

أولاً السكاكى وعلم المعانى :

وكان منهجه فى ضبط مسائل كل علم ثمرة لنظره فى تعريفه فقد عرف علم المعانى فقال: اعلم أن علم المعانى هو تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره"(٧٤).

ومن هذا التعريف وضع لعلم المعانى منهجه المحدد وأبوابه المعروفة ، ولم يسبق بشئ مما ذكره فى التحديد ، والذى يلفتنا فى هذا التعريف هو ذلك الربط القوى بين هذا العلم والنصوص الأدبية الرفيعة إذ إنه يعنى بالتراكيب تراكيب البلغاء المشهود لهم بالسبق والتفوق وقد نظر السكاكى فوجد التعرض لخواص التراكيب موقوفا على التعرض للتركيب ، ثم إن التعرض لتراكيب الكلام وهى منتشرة أمر يصعب حصره فوجب المصير إلى إيرادها تحت الضبط بتعيين ما هو أصل لها وسابق فى الاعتبار ، ثم حمل ما عدا ذلك عليه شيئا فشيئا على موجب المساق والسابق فى الاعتبار.

ومعنى ذلك أنه سيضم القرين إلى القرين ، حتى لا تتناثر المسائل فى غير نظام وسيضع كل مجموعة منها وضعاً منطقياً ، بحيث يجعل لها أصلاً تتفرع منه أشتاتها(٧٥).

(٧٣) ينظر: البيان العربى د/ بدوى طبانة ص٢٤٦.

(٧٤) مفتاح العلوم ص١٦١.

(٧٥) يراجع مفتاح العلوم ١٦٣، ١٦٤، والبلاغة القرآنية ٥٠٥ ، والبلاغة تطور وتاريخ ٢٨٩.

ونراه يبدأ بتوزيع مباحث المعانى على الخبر والطلب ، ويعرض لمن عرفوا الخبر بأنه ما يحتمل الصدق والكذب ، ويقول إن ذلك شئ واضح معروف فهما يجريان فيه، ولا يجريان فى الطلب ، وهو الاستفهام والتمنى والأمر والنهى والنداء(٧٦).

ثم يأخذ السكاكى بعد ذلك يوضح الموضوعات التى سيتناولها الخبر أو الجملة الخبرية ، وهو الإسناد الخبرى والمسند إليه والفصل والوصل والإيجاز والإطناب.

وتراه دائماً يعلل لتأخير كل موضوع عن سابقه ، فكل شئ يوضع بقسطاس ، ثم يفصل الحديث عن الإسناد الخبرى واختلافه باختلاف أحوال السامع بحيث إذا كان خالى الذهن لم يؤكد له وإذا كان طالبا له فى تحير أكد بمؤكد واحد وإذا كان منكراً له أورد عليه مؤكداً بتأكيدين أو أكثر ، ويسمى الخبر فى تلك الأحوال على الترتيب ابتدائياً وطلبياً وإنكارياً .

وقد ناقش الشيخ عبد القاهر هذه الصور وطبقها الزمخشرى فى كشافه ، وكان الجديد عند السكاكى هو إعطاء تلك المراتب مصطلحاتها البلاغية الأخيرة(٧٧).

يقول السكاكى: " والذى أريناك ، إذا أعملت فيه البصيرة استوثقت من جواب أبى العباس للكندى (٧٨) حين سأله قائلاً: إنى أجد فى كلام العرب حشواً ، يقولون عبد الله قائم ، ثم يقولون: إن عبد الله قائم ، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم والمعنى واحد وذلك بأن قال: بل المعانى مختلفة فقولهم: عبدالله قائم إخبار عن قيامه وقولهم : إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه"(٧٩).

(٧٦) يراجع مفتاح العلوم ص١٦٤.

(٧٧) ينظر: مفتاح العلوم ١٧٠، ١٧١.

(٧٨) هو محمد بن يزيد المبرد اللغوى الأديب ، والكندى هو يعقوب بن إسحق الفيلسوف.

(٧٩) مفتاح العلوم ١٧١.

ويخرج إلى بيان أحوال المسند إليه فى مبحث مفصل كبير يتحدث فيه عن حذف المسند إليه وذكره وتعريفه ووصفه وتنكيره وتقديمه على المسند وتأخيره عنه وتخصيصه وقصره المقتضيات البلاغية لذلك كله (٨٠).

وينتقل إلى المسند وتصوير الاعتبارات فى كيفياته محذوفاً ومذكوراً ومفرداً وجملة فعلية أو اسمية أو منكراً أو معرفاً أو مقيداً بقيد أو مقدماً او مؤخراً.

أما حذفه فإما لأن حالا سد مسده ، وإما قصداً للاختصار والاحراز عن العبث كقوله تعالى: ﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار﴾ إذا حملته على تقدير : النار شر من ذلكم (٨١).

ويذكر إما لأنه الأصل ولا مقتض للعدول عنه ، وإما لزيادة التقرير أو للتعريض بغباوة السامع أو لاستلذاذه أو قصد التعجيب من المسند إليه بذكره كما إذا قلت: زيد يقاوم الأسد مع دلالة قرائن الأحوال أو لتعظيمه أو إهانته أو غير ذلك مما يصلح للقصد إليه(٨٢).

ويكون المسند اسماً للدلالة على الثبوت كقولك: زيد عالم ويكون فعلاً للدلالة على التجدد والاستمرار كقولك: زيد عالم، ويقيد بالمفعول والحال والتمييز والشرط لتربية الفائدة.

فمثال تقييده بالمفعولات – ضربت تأديباً ، وفررت جبناً ، وجلست والسارية ، ومثال التقييد بالحال والتمييز – جاء زيد راكباً طاب زيد نفساً ومثال التقييد بالشرط – إن ضرب عمرو يضرب زيد فهذه كلها تقييدات للمسند وتفاصيل يزداد الحكم بها بعداً(٨٣).

ويعقد السكاكى فصلا للفعل ومتعلقاته فى الترك والإثبات أو فى الحذف والذكر ، ويبدأ بحذف الفعل فى بعض الصيغ وفى الجواب عن السؤال ، ويقول إنه يذكر للحاجة إليه فى الكلام ، ويقف عند حذف المفعول قصداً للتعميم أو إلى نفس الفعل أو قصداً إلى الاختصار أو لرعاية

(٨٠) يراجع مفتاح العلوم ١٧٥ – ٢٠٥.
(٨١) مفتاح العلوم ٢٠٦.
(٨٢) ينظر: مفتاح العلوم ٢٠٦.
(٨٣) ينظر: مفتاح العلوم ٢٠٧، ٢٠٩.

الفاصلة ، ويقول : إنه يذكر لفائدة تمام الكلام أو لزيادة تقريره وبسطه أو لرعاية الفاصلة ، ويطيل الوقوف عند تقديم الفاعل مع الفعل مثل: " أنا عرفت " و " أنت تعرف " وإفادة التقديم الاختصاص " (٨٤).

ثم ينتقل السكاكى إلى الفصل والوصل ، ويذكر صوره من النثر والشعر، ويأخذ فى تفصيل الحالات المقتضية للقطع والاستئناف ولكمال الانقطاع وكمال الاتصال ، ويلاحظ أنه يقطع للاحتياط حين يخشى أن يتبادر إلى ذهن السامع أن الجملة معطوفة على أخرى من شأنها إذا عطفت عليها أن يفسد المعنى كقول القائل:

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلاً أراها فى الضلال تهيم

فإنه لم يعطف "أراها " حتى لا يتبادر إلى السامع أنها معطوفة على أبغى دون " تظن " ويقطع أيضاً الكلام ويبنى على الاستئناف إذا قدر أنه جواب لسؤال، ويأتى بأمثلة كثيرة لشبه كمال الاتصال (٨٥).

وهو فى كل ذلك يستمد من الإمام عبدالقاهر والزمخشرى.

ويفتح باباً للإيجاز والإطناب يستهله بأنهما نسبيان ، فقد يكون ظاهر الكلام مطنباً وهو موجز بالقياس إلى كلام آخر ، ومن هنا رد الاعتبار فيهما إلى المتعارف فى أوساط الأدباء ، ومضى يورد أمثلة قرآنية لإيجاز القصر مثل (ولكم فى القصاص حياة) حتى إذا انتهى منه أورد أمثلة قرآنية أيضاً للإطناب ملاحظاً هنا وهناك بعض ملاحظات نحوية وخاصة فيما يتعلق بإيجاز الحذف(٨٦).

ثم ينتقل بعد ذلك إلى القصر ويقول: إنه تخصيص موصوف بوصف دون ثان ، مثل: زيد شاعر لا منجم ، تقوله لمن يعتقد أنه شاعر ومنجم كذلك لمن يعتقد أنه يتصف بأحد الوصفين دون تعيين ويسمى قصر إفراد ، وإذا قلت لمن يعتقد فى زيد العكس ، وأنه منجم لا شاعر كان

(٨٤) ينظر: مفتاح العلوم ص٢٢٥، وما بعدها.

(٨٥) ينظر: نفس المرجع ٢٤٨، وما بعدها.

(٨٦) ينظر: نفس المرجع ص٢٧٦، وما بعدها.

ذلك قصر قلب ؛ لأنه قلبت فيه حكم السامع ويتحدث عن طرق القصر ويقول: إنها أربعة : العطف بلا وبل ، مثل: " زيد شاعر لا منجم" " وما زيد منجم بل شاعر" والنفى والاستثناء مثل : " ما زيد إلا شاعر " إفراداً أوقلباً ، وإنما مثل الآية الكريمة ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ وقد طبق عليها فكرة القلب والإفراد ، والتقديم ، ويكون قصر إفراد فى مثل " مصرى أنا " لمن يرددك بين مصر ولبنان ، ويكون قصر قلب لمن ينفيك عن مصر ويلحقك بلبنان ، يقول : إن دلالة الطرق الثلاثة الأولى على القصر بالوضع ، أما دلالة التقديم فبواسطة الفحوى وحكم الذوق ويأخذ فى بيان فروق فى استعمال هذه الطرق مستنيراً بما كتبه الإمام عبد القاهر والعلامة الزمخشرى(٨٧).

ثم بعد ان انتهى من القصر انتقل إلى الطلب وكتب له مقدمة طويلة استمدها من كلام المناطقة عن التصور والتصديق وما يحصل فى الذهن وما يحصل فى الخارج ويقسمه إلى خمسة أنواع هى: التمنى والاستفهام والأمر والنهى والنداء ، والألفاظ والأدوات الموضوعة لكل نوع ، وأنها قد تخرج للدلالة على معان إضافية – أى مجازية – مع الإتيان بأمثلة كثيرة من القرآن وغيره ، وهو فى كل ذلك يستمد من الزمخشرى فى تصوير هذه الدلالات (٨٨).

وهكذا بمثل هذا التبويب الصارم يحصر السكاكى مباحث علم المعانى فإذا ما فرغ منها انتقل إلى مباحث علم البيان فحصرها بنفس الطريقة .

ثانياً: السكاكى وعلم البيان:

خص السكاكى البيان بالفصل الثانى ، وقسمه إلى أقسام أساسية ، وقسم كلا من هذه الأقسام إلى مجموعة من الفروع ، وقسم بعض هذه الفروع إلى مجموعة من الشعب ، وذلك بأن قسم البيان إلى ثلاثة أصول:

١- التشبيه ٢- المجاز ٣- الكناية

(٨٧) ينظر: مفتاح العلوم ٢٨٨، وما بعدها.

(٨٨) ينظر: نفس المرجع ٣٠٢، وما بعدها.

ثم أخذ فى تقسيم كل أصل من هذه الأصول بطريقة خاصة فقسم الأصل الأول – وهو التشبيه – إلى أربعة أنواع: النوع الأول: " طرفا التشبيه " ، النوع الثانى: " وجه الشبه " ، النوع الثالث: " الغرض من التشبيه " ، النوع الرابع: " أحوال التشبيه " من ناحية القرب والبعد ، والقبول والرد ، أما الأصل الثانى وهو –المجاز– فقد قسمه إلى مجموعة من الفصول:

الفصل الأول: " المجاز اللغوى الغير مفيد " وسماه مجاز التعدية ، وهو أن تكون الكلمة موضوعة لحقيقة من الحقائق مع قيد فتستعملها لتلك الحقيقة لا مع ذلك القيد بمعونة القرينة ، مثل أن تستعمل المرسن وأنه موضوع لمعنى الأنف ، استعمال الأنف من غير زيادة قيد بمعونة القرائن كقول العجاج:

وفاحماً ومرسناً مسرجاً

يعنى أنفاً يبرق كالسراج وإنما كان غير مقيد لقيامه مقام أحد المترادفين.

الفصل الثانى: المجاز المفيد الخالى عن المبالغة فى التشبيه وهو ما يسمى بالمجاز المرسل .

الفصل الثالث: المجاز الراجع إلى المعنى المفيد المتضمن للمبالغة فى التشبيه وهو الاستعارة.

الفصل الرابع: المجاز العقلى .

الفصل الخامس: مجاز لغوى راجع إلى حكم الكلمة (٨٩).

ويأخذ السكاكى فى بيان أقسام الاستعارة التى هى فصل من فصول المجاز إلى استعارة تصريحية ومكنية ، وأصلية وتبعية ، وتخيلية ومحتملة للتخييل والتحقيق ومرشحة ، ومجردة.

وأول قسم وقف عنده الاستعارة التصريحية التحققية مع القطع وأعفى القارئ من كثرة التفريعات المنطقية والتفسيرات العقلية واكتفى بالأمثلة ، ومثال هذه الاستعارة " كلمت أسداً " وتدخل فيها الاستعارة التهكمية أو العنادية التى يستعار فيها أحد الضدين للآخر .

ثم يدخل فيها الاستعارة التمثيلية التى تجرى فى الأمثال فى نحو: "أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى"(٩٠)

(٨٩) مفتاح العلوم ص٣٦٤.

وينتقل إلى الأصل الثالث وهو الكناية : ويعرفها بأنها: " ترك التصريح بذكر الشـــئ إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك" وتراه يفرق بين الكناية والمجاز من وجهين :

أحدهما: أن الكناية لا تنافى إرادة الحقيقة بلفظها فمثل قولهم: " هى نؤوم الضحى " كناية عن أنها مخدومة لا مانع فيها من أن يريد القائل أنها تنام ضحى لا عن تأويل ، والمجاز ينافى ذلك فلا يصح فى مثل : " كلمت أسداً " أن يراد الأسد الحقيقى.

والثانى:أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم

ويقسم السكاكى الكناية بحسب المراد منها إلى ثلاثة أقسام:

كناية عن موصوف ، وكناية عن صفة ، وكناية تدور على تخصيص الصفة بالموصـــوف ، ويلاحظ أنها تدخل فى الإسناد وسماها من جاء بعده من البلاغيين كناية عن نسبة (٩١).

ثالثاً: السكاكى وعلم البديع:

أما بحثه فى البديع فلم يكن ذا نفع عظيم إذ جعله قوالب جامدة لا روح فيها ولا حياة ، فهو لم ينظر إليه نظرة فيها الإحساس بالجمال والروح الفنية ، واكتفى بأن ذكر أنواعاً منه مـــع أمثلة قليلة أكثرها متكلف ، يضاف إلى ذلك أنه لم يبين ما فى الأمثلة من صور جمالية وإيحـــاءات (٩٢) والمحسنات البديعية المعنوية التى وقف عندها هى: المطابقة والمقابلة والمشـــاكلة ومراعـــاة النظير والمزاوجة واللف والنشر ، والجمع والتفريق والتقسيم ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والإبهام وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والتوجيه وسوق المعلوم مساق غيره ، وقد قال فيه: لا أحب تسميته بالتجاهل وهو يريد الفخر الرازى إذ سماه تجاهل العارف. كما ذكر أيضـــاً من المحسنات المعنوية الاستتباع ، والاعتراض والالتفات وتقليل اللفظ .

---

(٩٠) نفس المرجع ص٣٦٩، وما بعدها.

(٩١) نفس المرجع ص٤٠٣، وما بعدها.

(٩٢) ينظر: البلاغة عند السكاكى . د/ أحمد مطلوب ٣٤٠، ٣٤١، ط: التضـــامن ، نشـــر : النهضـــة ببغـــداد ١٣٨٤هـــ١٩٦٤م.

أما المحسنات اللفظية التى ساقها : فهى التجنيس وقد فصل القول فى صوره، والاشتقاق، ورد العجز على الصدر ، والقلب والسجع والترصيع ، وهو فى كل هذه الألوان يستمد من الفخر الرازى استمداداً مطابقاً للأصل وما انطوى فيه من الأمثلة(٩٣).

وبذلك يتم تلخيص السكاكى لعلمى المعانى والبيان ، وما ألحقه بهما من المحسنات البديعية وهو تلخيص أشاع فيه كثيراً من العسر والالتواء بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والرسوم والأقسام المتشعبة ، فأصبحت دراسته علمية محددة وجافة ، أو إن شئت قلت: هى استنتاجات عقلية وتقنين منطقى لما استطاع إدراكه من كلام الأئمة الذين عرفهم ببيئته وهم – الإمام عبد القاهر ، والعلامة الزمخشرى ، والفخر الرازى –(٩٤).

المؤلفات البلاغية حول مفتاح العلوم:

لقد كان نتيجة النشاط الذى أثاره كتاب " مفتاح العلوم " أن كثرت الشروح والتلخيصات كثرة لا نجدها فى غيره من الكتب ، ولكى نستطيع أن نتبين مدى هذا النشاط نذكر أهم شروحه وتلخيصاته مع الإشارة إلى الدراسات التى عنيت بتحليل هذه المؤلفات ونقدها وتقييمها.

أولاً: شروح المفتاح:

١- شرح قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازى ت (٧١٠هـ).

٢- شرح حسام الدين المؤذنى الخوارزمى فرغ منه أواخر المحرم سنة (٧٤٢هـ).

٣- شرح محمد بن مظفر الدين الخطيبى الخلخالى (٧٤٥هـ).

٤- شرح الشيخ عونية (عوينة) على بن الحسين الموصلى الشافعى (٧٥٥هـ).

٥- شرح جمال الدين محمد بن أحمد الشريش (٧٦٩هـ).

٦- شرح سعد الدين بن مسعود بن عمر التفتازانى (٧٩٢هـ).

٧- شرح على بن محمد المعروف بالسيد الشريف الجرجانى (٨١٦هـ).

٨- شرح الشيخ أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا الحنفى (٩٤٠هـ).

٩- شرح أحمد بن مصطفى المعروف بطاشكيرى زاده (٩٦٨هـ).

---

(٩٣) مفتاح العلوم ص٣٢٤، وما بعدها.

(٩٤) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ ٣١٣، البلاغة القرآنية ٥٠٦.

وذكر السبكى أن لمفتاح العلوم شروحاً أخر منها: شرح الشيخ ناصر الدين الترمذى ، وشرح الشيخ عماد الدين الكاشى(٩٥).

وهذه الشروح منها ما هو شرح للمفتاح كله ، ومنها ما هو شرح للقسم الثالث الخاص بالبلاغة ، وأفضل هذه الشروح – كما يقول القدماء –ثلاثة: هى شرح العلامة الشيرازى ، والعلامة التفتازانى ، والسيد الشريف الجرجانى – رحمهم الله تعالى– .

ثانياً: مختصرات المفتاح :

١– اختصره السكاكى نفسه بكتاب سماه " التبيان " ولم يعثر على هذا الكتاب ، ولم يذكره أحد من المؤلفين فى البلاغة وإنما ذكره ابن خلدون فى مقدمته.

٢– اختصره بدر الدين بن مالك (٦٨٦هـ) فى كتاب سماه "المصباح فى اختصار المفتاح " وقد لخص هذا المختصر محمد بن النحوية (٧١٨هـ) فى كتاب سماه " ضوء المصباح " وشرحه شرحاً لطيفاً.

٣– تلخيص المفتاح للعلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن جلال الدين الخطيب القزوينى (٧٣٩هـ).

٤– الفوائد الغياثية ، وهو مختصر المفتاح للعلامة عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار القاضى عضد الدين الإيجى الشافعى المشهور بالعضد (٧٥٦هـ).

٥– اختصره المولى حسن المعروف بالمعانيجى (٩٩٠هـ).

وأهم هذه التلخيصات الكثيرة هو "تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى الذى طبقت شهرته الخافقين ، وعنى بشرحه الجم الغفير من الشرقيين والمصريين والترك فى كل العصور ، وكل من ألف بعده فى البلاغة ، فإما أن يكون شارحاً لكتابه أو مختصراً له أو ناظماً له .

ثالثاً: شروح التلخيص:

منذ أن ألف القزوينى كتابه تلخيص المفتاح عكف عليه علماء البلاغة وكتبوا عليه شروحاً كثيرة ، أهمها :

١– الإيضاح للخطيب القزوينى نفسه ، وهو أحسنها وأقربها إلى روح البلاغة.

(٩٥) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٣٠/١ ، ط: دار السرور – بيروت .

٢- شرح بهاء الدين بن أحمد بن على السبكى (٧٧٣هـ) سماه " عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ".

٣- شرح أكمل الدين محمد بن محمود البابرتى (٧٦٨هـ).

٤- شرح شمس الدين محمد بن عثمان بن محمد الزوزنى (٧٩٢هـ).

٥- شرح سعد الدين التفتازانى (٧٩٢هـ) وله شرحان المطول والمختصر.

٦- شرح عصام الدين إبراهيم بن عرب شاه الإسفراييني (٩٤٥هـ).

٧- شرح ابن يعقوب المغربى (١١٠هـ) سماه مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح"(٩٦).

وأهم هذه الشروح وأكثرها فائدة كتاب " الإيضاح " و "المطول" للتفتازانى ، و " مواهب الفتاح " للمغربى ، و " عروس الأفراح " للسبكى ، وقد طبعت مجموعة قيمة لأربعة شروح فى كتاب واحد سمى " شروح التلخيص " هى: " الإيضاح ، وعروس الأفراح ، ومواهب الفتاح ، ومختصر السعد " ومعها حاشية لمحمد بن عرفة الدسوقى (١٢٣٠هـ) على مختصر السعد.

وهكذا أثار " مفتاح العلوم هذه الحركة فى التأليف ، وبعث النشاط فى العلماء والأدباء ، ولكن هذه الشروح والتلخيصات والمؤلفات لم تخرج عما خطه السكاكى فى المفتاح وعما كتبه الخطيب القزوينى فى تلخيصه وإيضاحه .

وكأن هذه جميعاً صورة واحدة لا يكاد يختلف بعضها عن البعض الآخر إلا فى أمور قليلة قد لا تكون فى مسائل البلاغة بقدر ما تكون فى مسائل أخرى أقحمت فى البلاغة إقحاماً كقضايا المنطق والفلسفة والأصول.

تنبيه وتحذير

لقد كانت هذه الكتب جميعاً منذ السكاكى إلى الدسوقى ، تقعيداً لبعض ما كتبه الإمام عبد القاهر فى كتابيه : " دلائل الإعجاز" و" أسرار البلاغة" فهو أول من أسس علم البلاغة تأسيساً بالغ الدقة ، ومن طلب البلاغة منهما وحدهما ، فقد وقع فى بحر تتلاطم أمواجه ، راكبه

(٩٦) ينظر: البلاغة عند السكاكى . د/ أحمد مطلوب ص٣٤٤، وما بعدها ، وتاريخ علوم البلاغة ص٣٣.

على غرر الغرق ، والذى يضمن لراكبه النجاة هم الذين قعدوا علوم البلاغة ، وكتبوا الكتب والحواشى وضمنوها درراً لا يعرض عنها إلا جاهل ، ولا يذمها ويحث الناس على الإعراض عنها إلا من استهان بالعلم وبالعلماء ، ولا يحصل طالب العلم من ذمهم إلا الاستهانة دون العلم .

وكتابا الإمام عبد القاهر : " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " أصلان جليلان فى البلاغة لم يسبقهما سابق ممن كتب فى البلاغة وهما ككتاب " سيبويه " بل أشد صعوبة ، فمن أراد اليوم أن يرد الناس عن كتب المبرد ومن بعده إلى ابن عقيل إلى ابن هشام إلى الأشمونى ، ويحثهم على استمداد النحو من " سيبويه " وحده فقد أغراهم بان يلقوا بأنفسهم فى بحر لجى لا يرى راكبه شاطئاً يأوى إليه ، وما هو إلا الغرق لا غيره كتاب "سيبويه" لا يعلم طالب العلم النحو إلا إذا مهد له الطريق ابن عقيل وابن هشام والأشمونى ، وإلا فقد قذف نفسه فى المهالك .

كل من دعا طلاب العلم إلى الإعراض عن الكتب التى قعدت القواعد ، ومحضت الكتب التى تعد أصلا فى علم لم يسبقهم إلى مثله ، كسيبويه ، وعبد القاهر – رحمهما الله تعالى – وحثهم على الرجوع إلى الأصل وحده ، دون استعانة ممن قعدوا قواعد هذا العلم ، وقتلوه بحثاً وتنقيباً ، فقد استهان بعقول هؤلاء الأئمة العظام الذين خدموا العلم بإخلاص وورع جيلا بعد جيل ، وعود طلبة العلم أن يستهينوا ويستخفوا بالعلم نفسه ، وهذا هو البلاء الماحق لكل فضيلة فى طالب العلم ، ويخرجه من حيز التواضع فى طلب العلم ، إلى حيز الغرور والتبجح والاستطالة بعلم ليسوا منه فى قبيل ولا دبير(٩٧).

هكذا قال الأستاذ الغيور على تراث الأمة الشيخ محمود شاكر رداً على تلكم الدعوة التى تحض طلبة العلم على إسقاط كتب برمتها من حسابهم ، وتحثهم على رفضها ، وترك النظر فيها بعد مرور ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

وهذا ما جرى على لسان الشيخ محمد عبده فى أوائل القرن الرابع عشر فى حركته مع شيوخ الأزهر ، طلباً لإصلاح التعليم فى الأزهر ، وقد كان هذا أول صدع فى تراث الأمة العربية الإسلامية ثم تلقف كلامه تلامذته فرددوه ترديداً متواصلاً، وجاء ذلك بينا فيما كتبه

(٩٧) مقدمة أسرار البلاغة للعلامة الأستاذ محمود شاكر ص٢٦، ٢٧ ، ط: المدنى – القاهرة .

الشيخ رشيد رضا والشيخ البرقوقى ، ثم جاء الدكتور طه حسين متلقفاً هذا الكلام ، وبنى عليه نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى والشك فى تراث الأمة كلها ، ولكنها بحمد الله ذهبت بددا لأنها لم تقم على أساس صحيح من العلم والنظر كما قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾.

أى بلاء حدث فى زماننا هذا ؟ إنما هو وباء الاستهانة بكل شئ ، وباء تفشى فى مصر، بل تجاوزها إلى غيرها من بلاد الإسلام انطفأ سراج العلم ، وسراج الخلق ، وبقيت العقول فى ظلمات بعضها فوق بعض ، أى نكبة نزلت بعلوم هذه الأمة العربية الإسلامية على يد الصغار فى حقيقتهم ، الكبار فى مراتبهم التى أنزلهم إياها تصاريف الزمان ، فأطلقوا ألسنتهم فى مواريث أربعة عشر قرناً بالاستهانة والقدح والازدراء .

ولله در الشريف الرضى حيث قال دفاعاً عن نفسه ، والدفاع عن علم أمتنا أولى بما قال:

وإن مقام مثلى فى الأعادى ... مقام البدر تنبحه الكلاب

رمونى بالعيوب ملفقات ... وقد علموا بأنى لا أعاب

ولما لم يلاقوا فىّ عيباً ... كسونى من عيوبهم وعابوا

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا نجاة إلا بالله العلى العظيم ، وهو بعباده لطيف خبير ، وهو القادر على أن يرد من زاغ عن الطريق إلى الجادة ، وأن يعيذه من شرور نفسه وفلتات لسانه.

المصـــادر والمـراجـــع

١. أسرار البلاغة ت أ/ محمود شاكر . نشر دار المدنى بجدة ط: أولى ســنة ١٤١٢هـــ ١٩٩٢م.
٢. إعجاز القرآن ، ط: مصطفى الحلبى، ط: أولى سنة ١٣٩٨هـــ١٩٧٨م.
٣. البلاغة وتطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ،
٤. البلاغة عند السكاكى . د/ أحمد مطلوب ، ط: التضامن ، نشـــر : النهضـــة ببغـــداد ١٣٨٤هـــ١٩٦٤م.
٥. البلاغة العربية وتاريخها ، مصادرها ، مناهجها . د/ على عشرى زايد ، نشر مكتبـــة الشباب سنة١٩٨٢م.
٦. البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د/ محمد أبو موسى ، ط: دار الفكر العربى.
٧. البيان العربى د/ بدوى طيانه .
٨. تاريخ علوم البلاغة.
٩. دلائل الإعجاز ط: مطبعة المدنى ت أ. محمود شاكر ص٥.
١٠. سمات البلاغة عند الشيخ عبد القاهر د/ محمد جلال الذهبى ، ط: الأمانة.
١١. الطراز للعلوى.
١٢. عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، ط: دار السرور – بيروت .
١٣. الفهرست ، المكتبة التجارية ١٣٤٨هـــ،
١٤. قضايا بلاغية للدكتور / صلاح شحاتة ، ط: المكتبة التوفيقيـــة ســـنة ١٤٠١هـــ ١٩٨١م.
١٥. الكشاف ، نشر دار الريان للتراث .
١٦. معجم البلدان ، معجم الآدباء لياقوت الحموى ،
١٧. مفتاح العلوم . ت/ نعيم زرزور ، ط: دار الكتـــب العلميـــة – بـــيروت ،.ثانيـــة ١٤٠٧هـــ١٩٨٧م.
١٨. مقدمة أسرار البلاغة للعلامة الأستاذ محمود شاكر ، ط: المدنى – القاهرة .